الفصل الثامن

العنف الفردي

الأسباب والدوافع

لمعرفة الأسباب للدوافع العدوانية الفردية لا بد من اكتشاف العوامل التي يتغير بتأثيرها سلوك الفرد، واستجاباته للمثيرات، سواء كانت مثيرات تتعلق بالنواحي العقلية، أو الفسيولوجية، أو الانفعالية. أو في ما يخص ظروف التنشئة منذ الطفولة. أو ما يتعلق بتأثير العوامل التي ينتجها المحيط الاجتماعي، أي الاتجاه العام للأفراد، أي ما يسمى بالرأي العام، مثلاً: كالتعصب، أو التمييز العنصري، أو الطبقي. وكذلك وجود بعض الظروف الضاغطة، كأخبار الكوارث، والاحتيال، والإدمان وغيرها. وكل هذا يؤدي إلى اضطرابات سلوكية تنتج عنها ردود فعل عنيفة. وإذا كان معظم علماء النفس والاجتماع والفلاسفة يؤكدون على دور المجتمع والتربية في التأثير على سلوك الأفراد، إذاً فلا يمكن للعدائية أن تنطلق دون وجود عوامل مثيرة أو ظروف ضاغطة. فالوعي الجماعي هو عبارة عن سيرورة تاريخية، ولهذا لا يمكن دراسة العدائية من خلال الفرد فقط دون معرفة العوامل المؤثرة في سلوكه والتي شَكَلها المحيط الاجتماعي.

كيف تحصل الجريمة

مدرسة التحليل النفسي، أو النظرية التحليلية في تفسير الجريمة تميل إلى القول بأن الجريمة يمكن أن تحصل لأي من الأسباب الثلاثة:

1- العجز عن التحكم في الدافع الإجرامي [الذات الدنيا] بسبب وجود ضعف أو عجز الذات الوسطى أو العليا ووقوفهم دون النمو المطلوب، ويقال أن المجرم لديه قدرة قليلة للكبت repressing الدوافع أو البواعث الغريزية أي الدوافع الإجرامية وذلك نتيجة لوقوع خطأ في النمو. وعلى ذلك يصبح الفرد الذي تسيطر عليه الذات الدنيا مجرماً نتيجة لذلك.

2- قد ينتج لتكوين الخلق المضاد للمجتمع من حدوث اضطراب في نمو الذات الوسطى ويحدث هذا أثناء السنوات الثلاثة الأولى من الحياة.

3- قد يؤدي النمو الزائد عن الحد في الذات العليا إلى تكوين ما يسمى بالمجرم العصابي. ذلك لأن الضمير الحاد جداً لا يوفر أي إشباع لمطالب الذات الدنيا. ومؤدى هذه النظرية أن المبالغة في تكوين ذوات الإنسان، أو التشدد الزائد في تكوين الذات العليا قد يؤدي إلى حدوث الجريمة. [153]

هكذا تصبح السلطة الرادعة واضعة لحدود الرغبة من خلال المحظورات والممنوعات. بالنسبة لفرويد الرغبة مكبوتة ومنحرفة دائماً وهذه الرغبة المكبوتة تمثل صراعاً مرضياً بين الأشخاص لا يلين مع اللاوعي الداخلي ولا يمكن السيطرة عليه، بينما ينتقد **ريكور** حتمية الرغبة عند **فرويد** لأن السلطة عند ريكور تعبر عن تحول في تاريخ الفرد من إشباع للرغبة عبر رغبة أخرى، فالرغبة تصبح حركة جدلية، كما عند **هيغل** حيث تصبح الرغبة شيء **آخر** تحقق الذات نفسها من خلاله وفيه. ريكور يدمج بين الوعي العقلي

[153] مبحث الجريمة، ص، 64.

والبدني فالوعي العقلي يحاول السيطرة على الرغبة المجهولة الجسدية؛ وخاصةً في مرحلة الطفولة حيث يستبطن الطفل بعض نماذج الرغبات التي تُكون هويته، ونجاح هذه المرحلة الأولى من العمر أو فشلها ينعكس على تطور شخصية المرء.

وهناك علاقة بين الغيظ الشديد والعنف، فالعنف الناتج عن الغيظ فعل غير عقلاني، وقد لا يكون لدى الفاعل نية التدمير أو الضرب أو القتل، وأحياناً يتم ارتكاب الجريمة نتيجة ردود فعل على أحداث ضاغطة. أو للدفاع عن النفس. وفي حالات الدفاع عن النفس الفاعل لم يكن قد خطط مسبقاً لما ارتكب، وفي هذه الحالة يكون الجاني أشبه بالضحية، وقد يندم على تسرعه، فيتعرض لنوبات من عذاب الضمير لا تنتهي؛ ولكن هناك على النقيض من ذلك مخلوقات تتسم بقدر كبير من العدائية، ولا تقيم وزناً لأي عمل إجرامي مهما كان نوعه، فالمشكلة الحقيقية للعنف تكمن بوجود مثل هؤلاء الأشخاص.

الطبيب الإيطالي سيزار لومبروزو Cesar Lambroso والذي عاش في منتصف القرن الرابع عشر عزا الجريمة إلى ما يمكن تسميته بالجنون الخلقي Moral insanity وفكر في طريقة يعرف بها الأشخاص الذين يصبحون مجرمين Criminal. ولكن أصبح واضحاً اليوم أنه لا يوجد سببٌ واحدٌ للجريمة ولهذا يصبح اصطلاح النمط الإجرامي الذي أطلقه لامبروزو في الماضي هو اصطلاح خاطئ، وأصبح من الأجدر على العلماء أن يبحثوا عن الظروف والملابسات المرتبطة بأي جريمة ترتفع معدلاتها، وما هي الصفات أو الخصائص إذا كان هناك أي صفات أو خصائص ترتبط بصورة متكررة مع نمط معين من السلوك.

وهناك علم يبحث في الجريمة والنزعة الإجرامية يُعرف "بعلم الإجرام" وهذا العلم ينبري لدراسة مصادر الإجرام لدى المجرمين بغية الحد منه والقضاء عليها. ولعلم الإجرام تاريخ طويل يرجع إلى سقراط وأبوقراط وأفلاطون وأرسطو، إذ عزا هؤلاء الجريمة إلى "نفس فاسدة" في المجرم أساسها عيوب خلقية جسمية. واعتبر أفلاطون مصدر الجريمة بعض الانفعالات مثل الحسد – الغيرة - الطمع – الغضب – والبحث عن اللذة. ولم يتوقف أرسطو عن البحث في العلاقة بين الجريمة والمجتمع. وفي القرن الثامن عشر لاحظ كل من بكاريا Baccaria وفولتير Voltair أن السرقة هي جريمة الفقر وأن مكافحة الجريمة تقتضي من الدولة رعاية من لا يملكون مورداً للرزق. أما القديس توما الأكويني فاعتبر أن شهوات الإنسان هي السبب في غالبية الجرائم.

لكن عالم النفس **فريمان** (1948) قسم الناس طبقاً لمتغيرات ثلاثة تتحكم في أنماط السلوك وهي:

1- استثارة الدوافع.
2- تفريغ الضبط.
3- القدرة على التمييز.

وهذا يعني أن من الممكن أن يكون هناك من الناس من تستثار دوافعهم بقوة مع ضعف الضبط الذي قد يصل بصاحبه إلى حد الإجرام؛ وهؤلاء يقدمون الجرائم، ويكون تكيفهم سيئاً كالسيكوباتيين.

تعريف السيكوباتي :

"يصيب الإنسان كثير من الأمراض والعلل، منها ما يهاجم جسمه، ومنها ما يهاجم عقله وتفكيره، ومنها ما يهاجم وظائفه النفسية، ولعل أخطرها جميعاً ما يهاجم خُلقه ومعاييره ومثله. ولقد اصطلح علماء النفس الحديث على تسمية

هذا الاضطراب بالسيكوباتية. مثل هذا الشخص يخرق القانون الخُلقي ويهدده دون مبالاة، ويرتكب المحرمات والمعاصي والأخطاء دون أن يشعر بتأنيب الضمير، أو بلوم الذات." [154]

ويعاني السيكوباتي من عدم الاستقرار العاطفي إلى درجة تقترب من الحالة المرضية، ويتصرف بفجاجة ويبرهن عن عدم النضج الأخلاقي وعدم التبصر في عواقب الأمور، وهو عصبي المزاج وسريع الغضب وميال للانتقام والعدوان والخداع والابتزاز والكذب أو ما شابه هذه المزايا، ولا يشعر بالشفقة على ضحاياه، ويقال أنه يقتل ويضحك." ويمكن للسيكوباتية أن تنشأ عن خبرات طفولة تتسم بالقسوة والوحشية فقد يكون قد تعرض للإهمال، أو فقدان أحد الوالدين أو كلاهما، أو قد ينحدر من آباء سيكوباتيين.

ويرى بعض الباحثين أن السيكوباتية ترتبط بعدم تكامل القشرة المخية أو لحاء المخ وعدم النضج الفسيولوجي وانعدام التوازن الحيوي حيث دلت رسوم موجات المخ عندهم أن هذه الرسوم تشبه رسوم مخ الأطفال." [155]

إن وسائط الهذا، والأنا، والأنا السامية ليست "أماكن" كما في الطوبوغرافيا الأولى، وإنما هي أدوار في الشخصية، يجري تعلم هذه الأدوار وتمثيلها من الصور الخارجية في التاريخ. ولا تتوافق الطوبوغرافيا الثانية مع الطوبوغرافيا الأولى، فالأنا ليست تماماً مثل الوعي، ولا الهذا تماماً مثل الوعي. بل تصبح الطوبوغرافيا الثانية تنوعاً ثلاثياً في موضوع قواعدي بخصوص المجهول وفوق الشخصي في تكوين الفرد، فالشخص عبارة عن دلالة تاريخية للهذا، أو لما هو غير مسمى، وما هو غير معروف حتى الآن، أما الأنا فهي ما يتم الإيمان به،

[154] مبحث الجريمة، ص 161.

[155] مبحث الجريمة ص 163.

والأنا السامية هي أكثر مما هو شخصي والفرد هو عبارة عن مركب مؤقت لعلاقات متغيرة تتكون من خلال الخطاب الرمزي." [156]

الأنماط السلوكية هل هي مكتسبة أم وراثية؟

العدوان من أهم المسائل التي تشغل الباحثين، وهناك فرضيتين أساسيتين بخصوص العدوان، الأولى تقول أن العنف فطري متأصل في البشر. والثانية تقول أن العنف مكتسب من خلال المحاكاة، وهذه الفرضيات ما زالت تثير الجدال بين الباحثين، فبعض الدراسات تؤكد على العوامل البيئية وتأثير المحيط وبعضها لا ينفي أثر الوراثة ، ومنهم من يعتبره ناتج عن تركيب جيني ينتقل من جيل إلى جيل، ومنهم من يرده إلى الغريزة، أو التربية السيئة وخبرات الطفولة.

ومن المؤكد أن العوامل الوراثية تضع الإطار العام الذي ينمو من خلاله الذكاء، ولا يمكن تخطي هذا الإطار، ولكن هذا لا ينفي تأثير العوامل البيئية على إمكانية استخدام الذكاء وتطويره. وهذا الذكاء قد يتجه نحو الخلق والإبداع والعلم، وإما يُستغل لتفعيل الاحتيال والجريمة.

تأثير العوامل البيولوجية على السلوك

" لا شك أن شخصية الفرد وسلوكه يتأثران بالعوامل الفيزيائية، كما يظهر ذلك في سلوكه اليومي وفي مظهره، وحيث يتأثر بقدرته على السمع والرؤية

[156] الأنماط الثقافية للعنف، ص 136.

والإحساس واللمس والإحساس بالحرارة والبرودة، كما تؤثر في سلوكه مقدار ما يمتلك من قوة وعضلات، كما يتأثر بكفاءة قلبه في النشاط ورئتيه ومعدته وأمعائه ، وفوق كل ذلك يتأثر بمخه أو دماغه وتؤثر هذه العوامل، وغيرها في مقدار ما يتعلمه الفرد. ولا شك أن هذه العوامل الفيزيائية كالقلب والدماغ والمعدة تؤثر تأثيراً كبيراً في الوظائف النفسية للفرد. وهناك كثير من الشواهد والأدلة التي تقطع بحدوث التفاعل بين العوامل الوراثية الجسمية والعوامل البيئية، ومن هذه الأدلة الأمراض التي تنشأ من عوامل نفسية كالقلق والتوتر والحزن والاكتئاب، ولكن أعراضها تتخذ شكلاً جسمياً أو عضوياً. ومن الأمراض الدالة على التأثير المتبادل بين النفس والبدن: الربو وضغط الدم والسكر وتصلب الشرايين والحساسية وبعض أمراض الفم والأسنان وبعض الأمراض الجلدية." [157]

ولكن هل يمكن معرفة تأثير العامل الوراثي على بعض السلوكيات المنحرفة التي يدينها المجتمع؟ "من المجالات الكبرى التي يشتد الاختلاف على تحديدها، أنماط السلوك التي تعتبر من قبيل الأمراض، لأن المجتمع يدينها، أو تعتبر انحرافا، فلقد أثار الكشف المسحي الوراثي وكذلك الكشف المبكر عن السلوك النفسي الاجتماعي المنحرف، المخاوف حول انتهاك الحقوق المدنية لمن تمارس عليهم عملية التنبؤ هذه. فإذا كشف التنبؤ عن الطفل أن قدراته على التعليم ضعيفة أو أنه سيكون فيما بعد ضد المجتمع ، أو يقوم بأفعال عدوانية ومعادية للمجتمع، فإن ذلك قد يؤدي إلى توقعات لسلوك غير مقبول اجتماعياً. وقد يؤدي الرأي والموقف المسبق المترتب على ذلك لدى هؤلاء الكبار وغيرهم من الذين يقدمون الثواب والعقاب إلى تسهيل السلوك الغير مرغوب فيه، كذلك فإن معرفة صدق نتائج الكشف المسحي من عدمها قد تؤدي إلى

[157] مبحث الجريمة، ص 120.

خلق نبوءة تتحقق بذاتها، وقد تستخدم تلك التنبؤات من جانب شخص ثالث لتهيئة فرصة أو الحرمان من فرصة، مثل التعليم أو التوظيف، الأمر الذي قد يكون أساسياً لنمو إمكانات وقدرات الشخص المعني الفطرية، وبالتالي يعتبر من حقوق الإنسان." [158] ولهذا لا يتم التركيز على أهمية التنبؤات لما لها من آثار اجتماعية وأخلاقية، فهذا التقدم في علم الوراثة لا يعني تنبؤات دقيقة كاملة دائماً، بالإضافة إلى انتهاك حرمة الخصوصية للأفراد الذين خضعوا لعملية التنبؤ، ولكن هذا لا يقلل من أهمية الاستفادة من تطوير وتحسين القدرات الذاتية للأشخاص الذين لديهم قابلية للأمراض العقلية.

ولا شك أن العوامل التكوينية genetic factors تلعب دوراً هاماً في ظهور السمات الفيزيائية والعقلية والسلوكية، كالذكاء والنزعة الإجرامية والاستجابات الانفعالية في بعض الأمراض النفسية.

"والقاعدة الأساسية المألوفة للوراثة يعبر عنها بحيث أن السمات الموحدة يحددها زوج واحد من الجينات، ولكن معظم السمات التي تم معرفة محدداتها ليست بهذه البساطة. فلون العين الأحمر في فراشة الفاكهة لا يعتمد على زوج واحد من الجينات، وإنما على تركيب مكون من نحو خمسين جينة، أو على عمل هذه المجموعة من الجينات أو الصبغيات. والسمات التي تختلف على بعد معين مثل الطول بمعنى أنها توجد بنسب أو بمقادير متفاوتة في الناس، يحددها أكثر من جينة واحدة والذكاء مثله مثل الطول يختلف على امتداد مقياس ما، من الضعف العقلي إلى العبقرية، وبالمثل كافة السمات المعقدة لا تعتمد على جينة واحدة وإنما على تضافر عدد منها." [159]

---

[158] تقنيات الطب البيولوجية وحقوق الإنسان، ص 253.

[159] مبحث الجريمة، ص 93.

" ومن الدراسات البارزة في هذا المضمار دراسة توماس وزملائه (1970) الذين وجدوا أدلة تجريبية تؤيد فكرة الوراثة من السمات المزاجية للطفل، وإن الأطفال يختلفون عند الولادة في أحوالهم المزاجية، فلقد استطاع هؤلاء العلماء أن يميزوا ما وصفوه بأنه الطفل "السهل" والطفل "الصعب" ثم الطفل "البليد".

" كما تشير بعض الدراسات التي أجراها باحثون بعلم وظائف الأعضاء إلى أن الجزء المسمى بالجهاز الطرفي في المخ limpic system هو المسؤول عن السلوك العنيف، وتوضح النظرية الفسيولوجية وجود علاقة بين العنف وبين بعض مراكز المخ، فالسلوك العنيف من أكثر ما يميز مرضى الصرع عن الأشخاص العاديين ، وتبين إحدى الدراسات التي اهتمت بفحص عقول القتلة المصريين الموجودين بالسجون أو مستشفى الأمراض العقلية والتي أوضحت أن أكثر هؤلاء يعانون من رسم مخ شاذ، وهذا ما يؤيد الأساس الفزيولوجي للعنف.

ومن جانب آخر أرجع كونراد لورنز طاقة العنف إلى أنها تتكون في التنظيم العصبي المركزي." [160]

" ولم تبدأ الدراسة العلمية للمجرم إلا سنة 1871 م بالمحاولة التي قام بها الطبيب الإيطالي سيزار لمبروزو Cesar Lombroso . كان لومبروزو أستاذاً للطب الشرعي والعصبي بجامعة Pavia وطبيباً في الجيش الإيطالي. وقد أتاحت له خدمته في الجيش ملاحظة بعض مميزات الجنود الأشرار لم تكن متوافرة في الجنود الأخيار، ومنها وشمات ورسوم قبيحة كانوا يحدثونها على أجسامهم. واتضح له من تشريح جثث كثيرين من المجرمين وجود عيوب في تكوينهم الجثماني، كما فحص جماجمهم، فلاحظ في هذه الجماجم شذوذاً في الأسنان، وفي حجم الجبهة. وتصادف أنه قام بتشريح جثة قاطع طريق شقي

[160] العنف لدى الشباب الجامعي، ص 21.

يدعى Villela من جنوب إيطاليا، فشاهد في مؤخرة جبهته فراغاً شبيهاً بذلك الذي يوجد في القرود، Villela كان يتميز بخفة غير عادية في حركته وجنوح إلى المباهاة والتفاخر بنفسه وميل إلى التهكم والسخرية من الغير، الأمر الذي انتهى به إلى التقرير بأن المجرم وحش بدائي تتجلى فيه بطريقة الوراثة، خصائص ترجع إلى ما قبل التاريخ الإنساني. كما تناول لمبروزو بالبحث حالة مجرم اشتهر بجرائم العنف والدم، هو الجندي Miseda وخلص منها إلى القول بأن الجريمة ترجع إلى التشنجات العصبية التي تدفع إلى ارتكاب أفعال عنيفة. وهكذا تطورت في نظر لمبروزو صورة المجرم من "الوحش البدائي" إلى "الجنون النفساني" إلى "النسيج العصبي". ثم توصل بعد ذلك في كتابه "الجريمة" أن لكل جريمة أسباب عديدة، ولما كانت تلك الأسباب تختلط مع بعضها في الغالب ، فيجب أن لا يؤخذ كل سبب فيها على انفراد. ولقد كان لومبروزو يرى أن هناك منطقة مشتركة بين الإجرام والصرع." [161]

" وتبين لنا المعلومات المتوافرة بين أيدينا أنه نادراً ما يكون للعوامل الجينية الوراثية أثرها في أكثر من نصف حالات تغير الخصائص السلوكية مما يدعو إلى الاهتمام الشديد والخطير بالعوامل والأسباب الأخرى غير الوراثية، فيبدوا أن السبب الوراثي للخلاف السلوكي متعدد، فتدلنا النتائج على تباين وتعدد العوامل الجينية المهيئة والمساعدة على حصول الفصام، وتثبت العيوب التشريحية الدماغية لحالة فصام في واحد من توأمين وحيدي البويضة غير متساويين في الإصابة بالفصام أن السبب يعود إلى عوامل غير وراثية." [162]

---

[161] مبحث الجريمة ص 38 – 40.

[162] تقنيات الطب البيولوجية وحقوق الإنسان، ص 249.

ويبدو أن الضغوط البيئية لها تأثير مباشر بالنسبة للأشخاص الذين لديهم قابلية للأمراض العقلية، ولها تأثير على الأعراض المرتبطة بالقلق والاكتئاب.
ويمكن القول باختصار: أن سمات الشخصية لا تورث، وإنما هناك تكوينات معينة في الجهاز العصبي والغدي تهيئ الفرد لأنواع معينة من السلوك حينما تتفاعل مع المؤثرات البيئية.

تأثير خبرات الطفولة على تحديد الشخصية

كارل يونغ تكلم عن تأثير الأفكار الموروثة، مثلاً هناك مخاوف عند الأطفال من أفكار الغول والجن والليل وما شابه، وهذه الأفكار الموروثة تكمن في اللاوعي الجماعي، وكل المواقف الغامضة التي يعجز الطفل عن تفسيرها تثير فيه الخوف، ولكن هذا الخوف من الكائنات الخيالية يضعف مع تقدمهم بالعمر، لتحل مكانها المخاوف المتعلقة بالنواحي الحياتية الأخرى. ولهذا نجد أن حياة الشعوب مليئة بالطقوس الدينية والقيم والأدعية وغيرها، لأنها تخفف من الضغوط النفسية.
وكل الأفكار والمخاوف والتصرفات عند الأطفال تعود إلى الأهل وما يظهرونه من حب أو نبذ للطفل.
ولتحليل السلوك الإنساني يركز علماء النفس على معادلة ربط الأثر بالسبب، أو العلاقة بين المثير والاستجابة. **واطسن** يقول :المهم في علم النفس هو معرفة العلاقة بين المثير والاستجابة، وينفي واطسن أثر الوراثة النفسية أي وراثة السلوك العدواني فالوراثة بالنسبة له هي الوراثة الفزيولوجية فقط وليس النفسية، والفروقات بين الناس هي فروقات اجتماعية، وسلوك الإنسان هو نتيجة لعمليات التعلم. وهناك دراسات كثيرة قد أسفرت عن إمكان تعليم

الطفل تعليماً شرطياً، الابتسامة والامتصاص وغير ذلك من أنماط السلوك، فلقد أمكن تعليم الطفل الخوف من لعبته التي كان يسعد بها وذلك بعد اقتران رؤية هذه اللعبة بسماع الطفل لأصوات فجائية عالية. ويقول واطسن أنه يمكن تحويل الأطفال الذين ليس لديهم إعاقة فكرية إلى اختصاصات متنوعة كأطباء أو مهندسين أو باحثين...، أو يمكن تحويلهم إلى متسولين أو سارقين أو منحرفين... بغض النظر عن ميولهم أو اتجاهاتهم وقدراتهم ومهنة آبائهم، فجميع الناس حسب **واطسن** متساوون عند الولادة، وهناك ثلاثة انفعالات فطرية عند الأطفال هي الخوف والغضب والحب، والفروقات بين الناس هي فروقات اجتماعية، وليس فروقات وراثية.

والواقع أن الجنين يتأثر بكثير من العوامل والظروف حتى قبل أن يولد، وقد تؤدي بعض العوامل إلى سوء تكوين الجنين malformation ومن هذه العوامل مرض الأم واضطراباتها وتناول الأدوية والحالة الانفعالية... ألخ."[163]

وفي دراسة عن أطفال التبني تم استعراض نتائج بعض الدراسات منها دراسة أجريت في جامعة ستانفورد الأمريكية تمت فيها مقارنة العلاقة بين أطفال التبني وبين ذكاء آبائهم في التبني والعلاقة بين ذكاء الأطفال وذكاء آبائهم الحقيقيين ولقد تضمنت هذه الدراسة 214 طفلاً. وكذلك دراسة في جامعة مينسوتا الأمريكية تضمنت 194 طفلاً. ودراسة ثالثة في جامعة إيوا. وتم التوصل إلى نتيجة مفادها أن الأطفال يشبهون آبائهم الحقيقيين أكثر مما يشبه أطفال التبني آبائهم بالتبني، مما يدل على أن أثر الوراثة في الذكاء أقوى من أثر البيئة، ويظل التشابه قائماً بين الأطفال وآبائهم حتى وإن لم يعش الطفل مع والده، ولقد وجد أن الانتقال إلى بيوت التبني يؤدي إلى تحسين مستوى ذكاء الطفل ربما بسبب الغنى الثقافي والمعرفي للبيت الجديد. وتؤكد

[163] مبحث الجريمة، ص 112.

هذه الدراسات أهمية علاقة التفاعل بين العوامل البيئية المكتسبة والعوامل الوراثية. ومن المؤكد أن هناك علاقة بين الذكاء وطرق التعليم. [164]

ومن الملاحظ في معظم الدراسات أهمية وجود الأم، فحرمان الطفل من أمه له أثر كبير على النمو الانفعالي والعقلي عند الطفل، فعدم وجود الأم ينمي لديه الشعور بالقلق وعدم الأمن.

الغرائز وعلاقتها بالسلوك

حين نتكلم عن الغريزة لا بد من إعطاء تعريف منطقي لعمل الغريزة. فعمل الغريزة يكمن في انفصال المشاعر عن العقل، وعندما يتحكم العقل تصبح كل المشاعر غير مؤثرة، فالعقل يرشدنا إلى الحقيقة، والحقيقة صادقة، بينما الغريزة تمثل الجهل، والجهل هو الضياع أو التيه. ويصبح الجهل هو الحاكم عندما تسيطر الغرائز على الإنسان، فالغرائز تتحرك بدافع الميول وليس بدافع العقل أو الحقيقة. والانصياع الأعمى خلف الغرائز يدفعنا إلى الاستدلال الخطأ، والانفعال المدمر. وهكذا فإن معظم الجرائم تحصل بفعل الغضب وبفعل الغرائز. ولكن يجب التفريق بين الجريمة المدبرة، وبين الغضب، فالغضب مشاعر وانفعال قد لا يؤذي غير صاحبه، بينما الجريمة هي فعل موجه نحو الآخر.

وأهم ما يثير الغريزة هي الحاجة، والحاجات كثيرة ومتنوعة وإذا ما أشبعت الحاجات عند الإنسان وجد الارتياح والهدوء والرضا. وإذا لم يتم إشباع الحاجات ساد التوتر والإحباط والعدوان. ويفسر العالم السلوكي "كونراد

[164] أنظر مبحث الجريمة ، ص 97- 99.

لورينز" العدائية عل أنها طاقة غريزية تنشأ وتتراكم إلى أن تتلقى إشارة من المحيط الخارجي، ويرى أن الغريزة العدائية مشابهة للغريزة الجنسية.

مكدوجل في كتابه علم النفس الاجتماعي يجد أن الغرائز هي المحرك الأول للسلوك، والغريزة هي استعداد فطري ... ويمكن تصنيفها إلى غرائز فردية وغرائز اجتماعية. الغرائز الفردية مثل غريزة البحث عن الطعام وانفعالها الجوع وغريزة التملك وانفعالها لذة التملك، وغريزة الهرب وانفعالها الخوف، وغريزة الضحك وانفعالها الشعور بالمرح ... والغرائز الاجتماعية مثل غريزة المقاتلة وانفعالها الغضب، وغريزة التجمع وانفعالها الشعور بالوحدة، وغريزة الوالدية وانفعالها الحنو والعاطفة.

فرويد افترض أن هناك غريزتين لدى الإنسان هما غريزة الجنس وغريزة العدوان، "ويقر فرويد بأن الناس لا يرغبون في أن يسمعوا بوجود نزعة إنسانية فطرية للشر، للعدوان، وللتدمير، ومن ثم للوحشية أيضاً. ويعترف فرويد أن المساعدة للحضارة، يمكن أن تأتي من تغيير في علاقات البشر مع ضبط الأنفس، أكثر مما تأتي من الأوامر الأخلاقية. ولهذا يعترف فرويد، أن غريزة العدوان هي عند البشر نزعة غريزية متأصلة ، وتمثل العائق الأعظم أمام الحضارة." [165] فرويد يؤكد بأن كثيراً من العوامل الاجتماعية ترجع إلى دوافع غريزية، ويرى أن رغبات الإنسان التي تحركها الغريزة تبقى مكبوتة في اللاشعور ويمكن أن تبحث عن منفذ لها من خلال التهيج والغضب أو الرغبة في الانتقام. والخطر على الوجود يعيد العمل العقلي إلى ذكريات البقاء الأساسية على قيد الحياة. وهذه الغريزة الأساسية التي تدفع الإنسان وهي ما يسميها فرويد "غريزة الموت" فالصور الأساسية الراسخة في اللاوعي هي استبطان الصور التي تهدد البقاء.

---

[165] الأنماط الثقافية للعنف، ص 128.

العدوان و الإحباط

تظهر مؤشرات الإحباط حين لا يستطيع الإنسان تحقيق رغباته، فتبقى هذه الحاجات مكبوتة في اللاشعور ثم تظهر على شكل نوبات عصبية وقلق وتذمر. فالإحباط يثير في الشخص نوازع العدوانية المضادة على العامل المعوق، وحين يتكرر الفشل يسبب الإحباط. ويرتبط الإحباط ببعض الأمراض النفسية مثل الهستيريا، والفصام، وفقدان الذاكرة – تنفصل أجزاء من حياة المحبط وتبقى أجزاء أخرى - والإحباط هو نتيجة أسباب ضاغطة، قد تكون اقتصادية كالغرق في الديون، وتدني مستويات المعيشة، ونوعية السكن الغير مريح. أو أسرية، كمشاكل التفكك الأسري، أو بسبب أساليب التربية التسلطية والاعتباطية. ويمكن أن تكون هناك أسباب سياسية تؤدي إلى غياب الأمن الفردي والجماعي، وغياب الإحساس بالطمأنينة.هذه كلها من الأمور التي تؤدي إلى بناء شخصيات عصابية وعدوانية. فالشخص الذي يشعر أنه عرضة للهجوم أو غير محصن يكون شديد الحساسية تنتابه نوبات من اليأس والسخط على المجتمع، ويتسم سلوكه بالاندفاع والتسرع، واستجابته للضغوط تكون عنيفة، وهو لا يثق بالآخرين. . **الفرد آدلر** يرى أن أكثرية العصابيين هم من المطيعين والخجولين والقلقين، ويجد المجرمين بين الحركيين والسلطويين والقاسيين. وركز **أدلر** على مبدأ الشعور بالدونية، فالفشل يؤدي إلى الشعور بالدونية وفشل في التكيف، وأيضاً عقدة الفوقية تسبب أحياناً الانحراف أو الإدمان أو الانتحار عند مواجهة الفشل.

" وقد نشأت فرضية ارتباط العدوانية بالإحباط في كتابات فرويد وماكدوجل، وإن كانت قد اتخذت شكلها النهائي على يد دولارد، ودوب، وميلر، وسيرز في مؤلفهم الشهير الذي صدر عام 1939، وقد حاولت نظرية

الإحباط - العدوانية تفسير ظاهرة العنف من واقع تتبع العلاقة بين الإحباط والعنف، وافترضت أن الإحباط سبب للعنف وهو استجابة طبيعية له، ويزداد كلما زاد الإحباط، وقد أيدت دراسات أخرى هذا الافتراض، وعلى الرغم من أن الإحباط يسبب العدوان إلا أن ذلك يتوقف على مدى استعداد الشخص للعنف وإدراكه للموقف المحيط وتفسيره له، كما ذهب ميلر إلى أن الإنسان يستجيب للإحباط باستجابات كثيرة منها العدوان أو العنف، وإن كان ميلر لم يجد أن العدوانية والعنف استجابة فطرية للإحباط، غير أنه أكد صحة المبدأ العام وهو أن الإحباط الذي يعوق إشباع الحاجات في الوقت المناسب لسياق الفعل يؤدي إلى العدوانية، وتم ذلك من خلال صياغة مبدأ محدد للسلوك يربط بين الإحباط والعدوانية، يكون بموجب شكل ما من أشكال الإحباط يسبق السلوك العدواني، وإذا كانت الإحباطات لا تؤدي دائماً إلى العدوان – إلا أنها تنحو ذلك ، مع ملاحظة أن سلوكاً آخر – مثل المطاوعة قد يتصارع مع الإحباطات أو يتعارض مع التعبير عنها، وفي الوقت الذي تأكد صدق فرضية الإحباط – العدوانية، إلا أن هذه الفرضية لا تعالج عدداً من أمثلة السلوك العدواني بطريقة مباشرة، ويورد لامبرت أمثلة محددة على هذه الفكرة: بعض الناس يعبر بصورة أسرع من البعض الآخر عن العدوان عند الشعور بالإحباط، فهل يرجع هذا فقط إلى الإحباطات السابقة (بما فيها العقوبات) ومثال آخر بعض الناس عدوانيون دون إثارة واضحة: فهل هذا شكل مختلفا من السلوك العدواني (سادية مثلا مقابل النزعة الانتقامية)، وهل ما زالت هناك أشكال أخرى للعدوانية يتعلم الناس اللجوء إليها – عدوانية مقبولة اجتماعياً بدلاً من العدوانية المضادة للمجتمع، والعدوانية المازحة بدلاً من العدوانية الجادة ." [166]

[166] الحرب وسيكولوجية المجتمع ، ص 164.

الغشطالتية – وهي مدرسة في علم النفس – ترفض مبدأ الاستبطان وتعتبر الإدراك هو أساس العمليات العقلية والإدراك يتم فوراً ودون خبرة مسبقة، فهي تهمل دور التجربة والخبرة، ولهذا تتغير مواقف الأفراد في لحظة معينة مع وجود وقائع مؤثرة مثل الخوف أو الإحباط أو اليأس، فهناك تبعية متبادلة بين الشخصية والمحيط في لحظة معينة، فالضغوطات والتأثيرات الاجتماعية التي تحصل في المجال تؤثر علينا بشكل مباشر.

إنما العدوان لدى المحبطين لا يعني بالضرورة ارتكاب جرائم قتل، قد يقتصر العدوان عندهم، على تحطيم حاجيات أو السباب وأحياناً العزلة التامة عن المجتمع. والإحباط يترافق أيضاً مع حقد وكراهية كرد فعل على المثير الأساسي المسبب للحالة. وقد تكون ردود الفعل العنيفة فورية أو مؤجلة، والعنف المؤجل هو الأخطر لأنه يحصل بعد تخطيط كما يحدث في كثير من الجرائم المنظمة.

وردود الفعل العدوانية قد لا تتوجه مباشرةً نحو المتسبب بالحالة، وغالباً ما يتخذ المحبط لعدوانه هدفاً خارجياً ليصب عليه غضبه وسخطه، فإزاحة العدوان تتخذ لها ما يُسمى "كبش فداء" كهدف خارجي لا دخل له فيُسقط المحبط عليه غضبه، أو يحمله مسؤولية ما يعانيه، أو ما يتعرض له من عدم الأمان وعدم الاستقرار.

هل يوجد سمات محددة للعدائية

السمات هي أنماط سلوكية عامة وثابتة نسبياً تصدر عن الشخص في مواقف معينة، وتحديد سمات الفرد هي أفضل طريقة لتقييم الشخصية، فلكل شخصية نمطها من السمات التي لا توجد لدى جميع الأفراد، فهي تكون

خاصة بفرد معين. والسمة في رأي ألبورت هي الوحدة المناسبة في تحديد الشخصية.

"ألبورت" يعرف السمة بالآتي: " السمة هي بناء نفسي عصبي لديه القدرة على تقديم واستخراج مثيرات عديدة متساوية(متسقة ذات معنى ودلالة) من الأنماط السلوكية التوافقية والتعبيرية..." ويستطرد ألبورت بقوله :ولأن كل فرد له سمة معينة فإنه يستجيب لسلسلة من المثيرات بطريقة ما تعكس السمة. وهذا يعني أحياناً أن عليه أن يسلك مسلكاً بطريقة لم يسلكها من قبل وذلك لكي يعبر عن السمة التي لديه. وعلى النقيض فإن مصطلح العادة ينطبق على نوع محدد وضيق من الميل المحدد. والسمة أكثر شمولية وعمومية من العادة ووفقاً لألبورت فإن السمات والاتجاهات لا يمكن التمييز بينها ، والسمة أكثر شمولاً من الاتجاه فالاتجاه يختص بتوجيهات الأفراد أوجه محددة من البيئة تشمل (الناس الثقافة المجتمع) [167]

ويميز ألبورت بين نوعين من السمات سمات ديناميكية Dynamic، توضح لماذا يسلك الفرد هذا السلوك أو الدوافع التي دفعته إلى هذا السلوك. وسمات أسلوبية Stylistic تكشف عن كيف يسلك الفرد ، أي الأسلوب في السلوك. "إن لغة السمات قد تكون موجودة في جميع أعمال علماء النفس المهتمين بالشخصية مثلاً أولبرت وكاتيل قد جعلا السمة بمثابة وحدة البناء الأساسية في مفهوم الشخصية وفي وضع أساس لنظرية السمات نجد أولبرت يفحص كذلك وحدات بنائية ممكنة أخرى مثل العادات والاتجاهات والأنماط" [168]. "

[167] أنظر سيكولوجية الشخصية ص 113 - 122

[168] المصدر نفسه ص 161

والسلوك يتأثر بمجموعة من السمات أكثر من تأثره بسمة واحدة تعمل بمفردها، وتتأثر أيضاً إلى حد كبير بالخبرات التعليمية للفرد ومع تقدم العمر الزمني فإن بناء السمة لشخص ما يميل إلى أن يصبح أكثر استقراراً واتساقاً بصورة تجعل سلوكه أقل تغييراً. أما عند كاتيل فالسمات ليست المحددات الوحيدة للسلوك الإنساني فمثلاً أن موقف الفرد هو في دوره وحالته الحاضرة، وإن تحليل الحالة بصفة خاصة غالباً ما يُتجاهل في تحليل السلوك، ومفهوم السمات وفقاً لكاتيل يتمركز تحت عناوين عريضة ثلاثة: هي القدرة، والسمات المزاجية، والسمات الديناميكية. فالقدرة تُرى في طريقة الاستجابة على تعقيدات الموقف وذلك عندما يكون الفرد واضحاً في أهدافه التي يريد أن يتوصل إليها في ذلك الموقف، أما المزاج أو الشخصية العامة تكون عادة أسلوبية أي على علاقة بالأسلوب، بمعنى أنها تتعامل مع درجة السرعة والحركة والشكل والمثابرة، كما أنها تغطي مجموعة واحدة من الاستجابات النوعية مثلاً قد يكون الشخص بطيء من الناحية المزاجية أو سهل الانقياد أو حاد الطباع أو شجاع ... أما السمة الديناميكية فتتعلق بالدوافع والميول مثلاً قد يكون الشخص طموح أو مهتم بالرياضة أو له اتجاهات معينة فالبناء الديناميكي يُنظر إليه على أنه بمثابة قالب جامد. وسمات القدرة تشير إلى سلوك الفرد المعرفي والعقلاني.[169]

هل هناك علاقة بين التكوين البيولوجي وبين السلوك؟

هناك دراسات لا تُحصى عن الصفات البيولوجية البشرية، كاختلاف الجمجمة أو الفكين والعمود الفقري ولون البشرة وغيرها، ومعظم هذه

[169] سيكولوجية الشخصية، ص 144

الدراسات تؤكد أن هذه الفوارق الجسمية لا ينتج عنها فوارق عقلية، أو نفسية، فالكراهية والعنف والتعصب سمات غير فطرية وإنما هي خصائص اجتماعية تُكتسب عبر الحياة الاجتماعية. وجميع الأفراد ينتمون لسلالة واحدة، ونوع واحد، والفوارق الجسمية من الناحية الفيزيائية ناتجة عن عزلة الشعوب القديمة وبعدها عن بعضها، وبسبب تأثير المناخ على هذه الشعوب. والغرض من القول أن هناك سلالة أرقى من الأخرى هي أغراض استعمارية يبثها دعاة التفرقة العنصرية.

من النظريات التي حاولت الربط بين السلوك و النمط الجسمي: نظرية **كرتشمر** - الذي عمل على دراسة المقاييس الجسمانية للمرضى في المستشفيات من أصحاب الأمراض العقلية- توصل إلى تحديد ثلاثة أنماط جسمانية هي: **النمط النحيل، والنمط الرياضي، والنمط البدين**. وتوصل إلى أن الصفات النمطية قابلة للتغيير. وذهب كرتشمر إلى وجود علاقة بين التكوين الجسمي والحالات المزاجية، ووجد أن الأفراد الذين لهم مزاج فصامي يميلون إلى أن يكونوا نحافاً، والأفراد الذين لهم مزاج دوري يميلون إلى أن يكونوا قصاراً وبدينين. - المزاج الدوري يعني تقلب صاحبه في حالته المزاجية بين حالة الانشراح وحالة الاكتئاب بشكل كثير - والنمط لا يعني التسبب بالحالة الإجرامية، فمعظم الدراسات لم تظهر الدقة الكافية من حيث علاقة الأنماط بالجرائم، إنما الاختلافات في السلوك تعود إلى اختلافات في الأمزجة.

وأول المهتمين بتصنيف الأمزجة هو **أبقراط** (400 ق. م) فقسم الأمزجة إلى أربعة أقسام: المزاج الدموي: ويتميز بالمرح، والنشاط، والتفاؤل، وسهولة الاستثارة، وسرعة الإجابة. والمزاج السوداوي ويتميز بالانطواء، والتأمل وبطء التفكير، والتشاؤم، والميل إلى الحزن والاكتئاب. والمزاج الصفراوي: ويتميز

بسرعة الانفعال، والغضب، وحدة المزاج، والصلابة، والعناد، والقوة. والمزاج البلغمي: ويتميز بالخمول وتبلد الشعور، وقلة الانفعال، وعدم الاكتراث، وبطء الحركة، وبطء الاستثارة والاستجابة، والميل إلى الشراهة. وهذا التصنيف للأمزجة على أساس أخلاط أو سوائل الجسم يتفق إلى حد كبير مع ما يؤكده العلم الحديث عن تأثير هرمونات الغدد الصماء.

ويمكن أن تؤثر الأمزجة بالأنماط، ففي علم الفراسة وهو علم قديم أثبت أن الانفعالات والتصرفات تعكس بعض الخطوط الواضحة على الوجه وعلى الجسد، وتظهر هذه الخطوط بوضوح على الأفراد بعد تقدم العمر، وبالتالي يظهر تأثير أنماط السلوك على النمط الجسمي.

obeikan.com